انحِسار الإنسانيّة في عصر السّيولة التّكنولوجيّة: خطوة إلى الأمام خطوة إلى الخلف

The Erosion of Humanity in the Age of Technological Fluidity: A Step Forward, A Step Backward

نريمان كوسة *
دكتوراه، جامعة معسكر
Narimane Koussa
PhD, Mascara University
koussanarimen@gmail.com

إيمان عامر
دكتوراه، جامعة قالمة
Imene Ameur
PhD, Guelma University
Ameurimene5@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2025/02/04 تاريخ القبول: 2025/04/13 تاريخ النشر: 2025/05/25

الملخص: تسعى هذه الدّراسة إلى الوقوف على قضيّة الأزمة الأنطولوجيّة التي يعيشها الإنسان المعاصر في ظلّ عصر السّيولة التّكنولوجيّة، الذي تتسارع فيه خطوات التطوّر وتتزايد قدرات الآلة، ممّا خلق نوعا من التوتّر بين تقدّم الإنسان الظّاهري وانحِسار جوهره الدّاخلي. وهذا ما شكّل اضطرابا للإنسانيّة في سيّاق الثورة التكنولوجية، فازدوجت المسارات، مسار إلى الأمام وآخر إلى الخلف، المسار الأوّل تقوده وتتحكّم فيه التّقنيّة وأمّا الثّاني فيحدّد معالمه جوهر الوجود الأصيل. وعلى هذا الأساس، سنحاول من خلال هذا البحث بتوظيف آليّات التّحليل الفلسفي والنّقدي العمل على تفكيك حيثيّات هذه المفارقة المعقّدة، مستعرضين كيف أن التقدّم التّقني، رغم إنجازاته المذهلة، قد يساهم في اغتراب وخراب الإنسان. هذا الإشكال الذي جعل هدفنا الرّئيس من هذه الدّراسة هو التّركيز على تحليل الآثار العميقة للتّكنولوجيا على تكوين الذّات الإنسانيّة، ومراجعة الصرّاع الدّاخلي للإنسان المعاصر، النّاتج عن هذا التقدّم، الذي أحدث شرخا عميقا على مستوى القيّم الروحيّة والسّلامة النّفسيّة والعلاقات الاجتماعيّة، كما يسعى البحث إلى استكشاف العلاقة الجدليّة القائمة بين الإنسان والآلة، والبحث في كيفيّة تأثير هذه العلاقة على الهويّة الفرديّة والجماعيّة. ليتمّ التوصّل إلى نتائج مفادها أنّ التكنولوجيا، رغم دورها الهام في التّقدّم الذي يشهده العصر، إلّا أنّها تُشكّل تهديدًا صريحًا لتوازن الإنسانيّة إذا لم يتم توجيهها وتأطيرها والتّحكّم فيها بشكل واعٍ نحو تحقيق مصلحة الإنسان وليس العكس.

الكلمات المفتاحية: الإنسانية، السّيولة التكنولوجية، الثّورة الرّقمية، التقنو علمي، الإنسان المعاصر.

Abstract: This study seeks to identify the issue of the ontological crisis experienced by contemporary man in the age of technological fluidity, in which the pace of development is accelerating and the capabilities of the machine are increasing, creating a kind of tension between man's outward progress and the decline of his inner essence. In the context of the technological revolution, the paths of humanity have become dual, one forward and the other backward, the former driven and controlled by technology and the latter determined by the essence of the original existence. On this basis, through this research, we will attempt to deconstruct this complex paradox by employing the mechanisms of philosophical and critical analysis, showing how technological progress, despite its amazing achievements, may contribute to the alienation and destruction of

*- المؤلف المرسل

mankind. The main objective of this study is to focus on analysing the profound effects of technology on the formation of the human self, and to review the internal conflict of the contemporary human being resulting from this progress, which has caused a deep rift at the level of spiritual values, psychological integrity, and social relations. The research also seeks to explore the dialectical relationship between man and machine, and to investigate how this relationship affects individual and collective identity. The research seeks to explore the dialectical relationship between man and machine, and to investigate how this relationship affects individual and collective identity. It concludes that technology, despite its important role in modern progress, poses a clear threat to the balance of humanity if it is not consciously directed, framed, and controlled for the benefit of the human being and not the other way around.

Keywords: Humanity, technological fluidity, digital revolution, techno-science, modern man.

- مقدمة:

إنّه ليس خافيًا أنّ لحظة اندفاع الثّورة التكنولوجية، جعلت العالم يدخل في مرحلة سائلة لا تعرف الثّبات والتّماسك، حيث اتّسمت بالتحوّلات المتسارِعة التي لا تكفّ عن فرضِ نفسها على بنية الوُجود الإنساني. لذلك، نشهد في عصرنا الرّاهن تقدمًا هائلًا في ميادين التّكنولوجيا الرّقميّة والذّكاء الاصطناعي، ممّا يثير إشكالات وتساؤلات متعدّدة حول مصير الإنسانيّة في عالم مليء عن آخره بالماديّات ومُشبّع بالأدوات والبرمجيّات المعقدّة. حيث يتّضح مع هذا التقدّم، ظهور مسار ازدواجي للإنسان المعاصر، إذ تتقاطع خطوط التقدّم المادّي مع تراجعات نفسيّة وفلسفيّة قد تؤدي إلى ما يمكن تسميته بـ "الاضطراب الإنساني" في عصر التّكنولوجيا. إذ في حين أنّ الآلات قد تمنحنا قدرة غير مسبوقة على السّيطرة على البيئات المحيطة، تظل الأسئلة المتعلقة بالمعنى والوجود الإنساني مفتوحة، بل وتزداد تعقيدًا.

انطلاقا من التّحليل السّابق، يمكن صيّاغة إشكال الموضوع كالآتي: هل يمكن للقيّم الإنسانيّة أن تصمد في ظلّ السّيولة التّكنولوجيّة؟ هذا ويتفرّع الإشكال الرئيس إلى التّساؤلات الآتيّة:

- كيف تؤثّر منصّات التّواصل الاجتماعي على العلاقات الإنسانيّة؟
- كيف تتحكّم الهيمنة الاقتصاديّة إلى جانب التّكنولوجيا في العلاقات الإنسانيّة؟
- الثورة التّقنو علميّة، خدمة الإنسانيّة أم تفسّخ للهويّة؟
- كيف يمكن التّأسيس لوعي أخلاقي يوازن بين تقدّم التكنولوجيا والحفاظ على الكرامة الإنسانيّة؟

ولضبط مسار بحثنا ارتأينا طرح الفرضيّات الآتيّة:

- إنّ منصات التّواصل الاجتماعي، رغم تسهيلها لعمليّة الاتّصال الافتراضيّة بين الأفراد، إلّا أنّها قد تُساهم في تفكيك العلاقات الإنسانيّة الحقّة وإغراقها في شعور الفراغ والانعزال.
- تعمل الهيمنة الاقتصاديّة إلى جانب السّيولة التّكنولوجيّة على تشكيل " إنسان استهلاكي" يُركّز في جوهر علاقاته على الماديّة والغواية والمُتعيّة.
- إنّ الثّورة التّقنو علميّة تُمثّل تحوّلات مُتعدّدة وجدالات مُعقّدة، إذ يُمكن أن تكون ذات تأثير مزدوج على الإنسان، فبينما تُقدّم حلولا لتحسين الحياة الإنسانيّة وتطويرها، فإنّها في المقابل قد تُساهم في تقويض وانسلاخ الهويّة الحقيقيّة للأفراد والجماعات.
- يمكن التّأسيس لوعي أخلاقي يعمل على تحقيق التّوازن بين التقدّم التّكنولوجي والهوية الإنسانيّة من خلال تطبيق مهارات التّفكير الفلسفي التي تدمج القيم الإنسانيّة في تصميم وتطبيق التقنيّات الحديثة، بحيث تظلّ حقوق الإنسان وحقيقته محور الاهتمام في هذه المسألة.

هذا وتكمن أهميّة الورقة البحثيّة في محاولتها الكشف عن أبعاد الصراع القائم بين الإنسان والتكنولوجيا، وهو صراع قد يهدّد الجوهر الفلسفي للوجود الإنساني. إذ تهدف الدّراسة الحاليّة إلى استعادة الوعي الفلسفي وتكاتف العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة لمداواة هذه العاهات بشأن التحديات التي تطرأ على مفهوم الذّات الإنسانيّة في مواجهة آلة تطمح إلى تجاوز الحدود البشريّة. كما تسعى الدّراسة إلى المساهمة في فهم عواقب هذا التقدّم على مستوى البنية النفسيّة والاجتماعيّة، في محاولة للبحث عن توازن بين الفوائد الماديّة لهذه التكنولوجيا وبين الحفاظ على القيّم الإنسانيّة الجوهريّة.

2-الإنسان المعاصر: كتلة معزولة وسط الضّجيج:

في ظلّ عصر مُؤسّس على ارتجاجات مُتكامِلة الأركان، يُسجّل الإنسان المُعاصِر حُضورا غائبا، وضوضاء اجتماعيّة مُنعزِلة، ومؤقّت دائم، وقداسة لا منتهى لها للتّكنولوجيا والعوالِم الافتراضيّة، فلم يعُد هذا الكائن المستعجِل يستأنس بتفاصيل الواقع والتّواصل المُباشر، لأنّه غارق في تفاصيل عالم افتراضي لا يعترف بالحدود بين الوجود والتّمثيل، حتّى نكاد نجزِم أنّ قاعدة "الإنسان كائن اجتماعيّ بطبعه" موضة مُستهلكة ولّى زمانها، وحلّت محلّها قاعدة " الإنسان كائن افتراضيّ بطبعه"، يُؤسّس لعلاقة هنا وينهي علاقة هناك، يتحدّث مع عشرات الأشخاص في آن بمشاعر متناقضة، تتأرجح بين المحبّة والكراهيّة، وبين السّعادة والتّعاسة، كلّ هذا وذاك بضغطة زرّ خلف شاشة صغيرة ذات ضوء خافت في ركن معزول عن المؤثّرات الواقعيّة، يجلس هذا الكائن المطبوع بجوهر العقل والتّفكير يختصِر العبارات ويختزِل المشاعر والأفكار .يُشاهِد هذا وذاك، حرب وحفل، تخلّف وتقدّم، "هُنا والآن" في ظلّ تنوّع الانفجار الرّقمي وسيولة العولمة صارت جديّة

العبث مُتاحة ومطلوبة، بتنوّع الموضوعات والقضايا، لذلك عرفت العلاقات الإنسانيّة اضطرابات مشهودة وملحوظة، فلم تعُد تنبني على أساس دائم ومستمر، بل صارت تبنى على المُتعيّة والسّطحيّة واللّحظيّة.

2-1- علاقات اجتماعيّة في ظلّ العبث الافتراضي (مؤقت وزائل):

في وقت مضى، كانت لألفة الحضور مُتعة حقيقيّة، أمّا في العصر الرّاهن فقد غدت الرّوابط الإنسانيّة مثل الأوهام، تتناثر خلف شاشات زجاجية، تتناثر كذكريات ضبابيّة في أفق معتم. فصار الإنسان يعيش في حالة من الانفصال العاطفي والمعرفي عن ذاته وعن الآخرين، يلاحق الوجود عبر لحظات "مؤقتة" لا تحمل معه سوى الإحساس بالوحدة في قلب ذلك الاتصال الزّائف.

وعلى هذا الأساس، نجد المجتمعات المعاصرة تعيش في عزلة مزدوجة: الأولى في الواقع المادي حيث تلاشت التّجربة الإنسانيّة المباشرة، والثانيّة في فضاء رقمي مُشبّع بالصّور والأصوات التي تستهلِك كلّ جوهره، فتجعله مجرّد ظلّ يلاحق وهمًا من التّواصل ممّا يؤكّد أنّ "الافتراضي استغرقنا رغما عنّا، وخير شاهد هوّ العبث الدّائم بشاشة المحمول، لقد أصبحنا بمثابة "اللُّعب" بيد سمارتفون دون إرادة منّا، إنّها حقيقة مُشوّقة ولكنّها مُقلقة في الوقت نفسه" (غودار، 2019، ص. 28).

مُشوّقة نظرا لفضائل وأفضال التّواصل الافتراضي عبر الشّاشات الرّقميّة التي يمكنها أن تأخذنا في جولة إل العالم في دقائق بل في ثوانٍ، دون تكاليف تعجيزيّة أو جهود كبيرة، وفي المقابل مُقلقة لأنّها على قدر ما تعزّز فعل التّواصل فإنّها تساهم في تدعيم العزلة الشخصيّة. لهذا، قد يتوهّم الواحد منّا على أنه في اتّصال وتواصل مستمرّين مع أصدقائه، إلّا أنّه في الواقع يعيش في قوقعة رقميّة معزولة عن التّفاعل الاجتماعي الحقيقي. وبالتّالي كلّما زاد الإفراط في تعاطي وسائل التّواصل الاجتماعي زادت قوّة مشاعر الوحدة والاكتئاب، بسبب ضغوط الفوضى الاجتماعيّة وكثرة الموضوعات والمشاكل التي تطرحها المواقع، وهذا ما يتسبّب في الإعياء الواقعي واستنزاف الطّاقة البشريّة في أمور تافهة وغير مجديّة.

ليس هذا فقط، بل إنّ الافتراضي في تمدّد مستمرّ، إنّه حرب من حروب العصر النّاعمة، غزوها يكون بطريقة هادئة وماتعة ومُغريّة كذلك، إنّ عوالِم المواقع تتقدّم شيئا فشيئا نحو الواقع وسيأتي وقت تنعدم فيه بصفة كليّة "الفواصل بين الافتراضي والواقعي، لا لأنّ الافتراضي في طريقه إلى أن يحل محلّ الواقع فقط، بل لأنّه يعمل على توسيعه وإغنائه ليصل في النّهاية إلى تغييره أيضا" (غودار، 2019، ص.32).

إنّ هذه الرّؤية التي تُجسّد زيادة السّرعة والسّيولة التي يستحوذ بها الافتراضي على الواقعي، تُصوّر لحظات أفول المعنى في مقوّمات العلاقات الاجتماعيّة، فلم يعُد الفعل التّواصلي يقوم على أساس التّماسك الاجتماعي وتعزيز روابط وأواصر الإنسانيّة فقد صار كما وصفه الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسي جيل ليبوفتسكي "تواصل من أجل التّواصل فقط." (ليبوفتسكي، 2022، ص. 134).

نحن، إذن، إزاء مفارقة تنذر بتمزّقات تواصليّة معتبرة، نِتاج ما يعيشه الإنسان المعاصر من تفكّكات اجتماعيّة بسبب الكثرة التي تفرزها التّكنولوجيا وإلى جانبها العولمة التي راهنت على هزّ الصّحّة النّفسيّة للمجتمعات المعاصرة، فجعلتها تتأرجح بين الصّوابيّة والخطأ، الحقيقة والوهم، التّواصل والقطيعة، وعلى هذا "فإنّنا نعيش في عالم يحتضر، ويجهل أنّه يحتضر ويمعن في الكذب على نفسه، لأنّه يُصرّ على تزيين غروب شمسه بألوان شروق العصر الذّهبي" (روني، 2014، ص. 5).

حيث أنّ ذوبان قيمة التّشريفات الاجتماعيّة على حساب تقديس المُتع الشّخصيّة أحدث شرخا عميقا، ليس بين الذّات وذاتها فقط، بل بين الذّات والآخر، فأصيب التّماسك الاجتماعي بالسّقم، رغم أنّ وسائل الاتّصال متوفّرة بكلّ الأشكال والأنواع وبكثرة وسيولة وسهولة.

يحدث هذا، ضمن سبب رئيس يتلخّص في المسار ما بعد التّخليقي الذي حوّل الواجبات تّجاه الذّات إلى حقوق ذاتيّة، وقلب موضع المقولات الواجبة للفضيلة إلى خيّارات ونصائح تقنيّة لأجل رفاهيّة الأشخاص. لقد قُلِبت صفحة من تاريخ الأخلاق الحديثة: أصبحت الأخلاق الفرديّة مُتجرّدة من جوهرها لصالح الحركيّة التّاريخيّة للاستقلاليّة الفردانيّة، التي صارت مُتحرّرة من شكل الإلزام الدّاخلي الذي يُحدّد الممارسات. (ليبوفتسكي ج، 2018، ص. 93).

هكذا إذن، شكّلت هذه الحالة من حُمّى الامتلاك اهتزازا وُجوديّا مزّق أوصال تواصل الذّات مع ذاتها، فالإنسان المعاصر لم يعُد يبحث عن تحقيق الكينونة في قيمتها المعنويّة أو الاجتماعيّة، وإنّما نزوته كلّها في تحقيق وجود تنحصر قيمته العليا فيما يملك وما الذي سيكسب؟ وهذا ما يؤكّد جليّا أنّ " الحضارة القادمة لا تُلغِ المشاركة الاجتماعيّة الإنسانيّة، إنّها تُدمّر الطّمأنينة مع الذّات والسّلام مع العالم؛ خطوة إلى الأمام خُطوة إلى الخلف." (ليبوفتسكي، 2022، ص. 160).

وبالتّالي فإنّ مياسم الوضع الحالي تُعدّ مياسم توعكيّة وليست مياسم صحيّة أو تفاؤليّة، ويتمّ توضيح ذلك من خلال ما جاء به تايلور حيث صوّر ثلاثة ملامح كبرى تعكس تُحفة كئيبة للحياة أوّلها، الفردانيّة، وهيّ ظاهرة تعكس الميل نحو التّمركز حول الذّات، وتلاشي المسؤوليّة الاجتماعيّة، في ظلّ واقع استهلاكي يعمل على تكوين هويّة ذات مفهوم غرائزي، وأكثر من

الفردانيّة، فإنّ ثمّة النّرجسيّة، بما هيّ سلوك نفسي لا تقبل الذّات إلّا ما تراه من منظورها صائبا، والفردانيّة هنا، تعني أيضا؛ الانكفاء على الذّات وتحرير الممارسات الأخلاقيّة من أيّة مرجعيّات مقدّسة؛ لقد ضاع فيما يرى تايلور المعنى البطولي للحياة (بلعقروز، 2019، ص.16).

هكذا يتبيّن أنّنا اليوم، نفتقر بشدّة إلى صورة واضحة للإجابة عن التّساؤلات الكبرى في حياتنا، من نحن؟ ماذا نريد؟ ما غايتنا من هذا الوجود؟ تبدو وِجهتنا مفقودة والسّيولة تجرفنا ولم نستطع البتّة التّحكّم فيها، "وضمن هذا الفيض، يجد الذّهن صعوبة مُتزايدة في التّفكير استنادا إلى مُمكناته. ولن يقودنا تضخّم المعلومة إلى التّضليل فقط، بل يغرقنا في شكل جديد من الأميّة، إنّها "أميّة جديدة". فبالإضافة إلى الإبدال الذي يربطنا بالمكان والزّمان، هناك إبدال آخر يربطنا باللّغة" (غودار، 2019، ص.60).

إنّ التخلّي عن اللّغة في ظلّ التّحوّلات الثّقافيّة الجديدة المرتكزة على التّكنولوجيا، زاد من تأزّم الوضع، وتراكمت العقد النّفسيّة عند الأفراد، نتيجة إهمال اللّغة كأداة تعبيريّة مباشرة، فقد اختزلتها لوحات المفاتيح وعبثت بها، وهذا العبث بدوره زجّ بنا إلى زنزانة اللّا يقين الخالص والشّكوك المريضة، فصار الإنسان ينفر من الإنسان لأنّه يسيء فهمه خلف الشّاشة، سواء في محادثة خاصّة أو في التّعليقات، وأوكل التّأويل لغير أهله، فكثرت الشّكوك الملطّخة بسوء الظّنون وزاد اللا تواصل في عصر يعج بوسائل الاتّصال.

في حين أنّ القصد الحقيقي الذي يحمل معنى من الاتّصال مراجعة عن بول غرايس الذي رأى مصيبا أنّنا حين نتّصل بالنّاس، فنحن نفلح بطريقة أو بأخرى في توليد فهم لديهم يجعلهم يتعرّفون على قصدنا في توليد ذلك الفهم. والاتّصال فعل خاص بين الأفعال الإنسانيّة التي ننجح فيها في توليد أثر مقصود على المستمع بجعل المستمع يتعرّف على قصد توليد ذلك الأثر نفسه (سيرل، 2006، ص. 212).

وفي هذا المقام، يتبيّن أنّ العمليّة التّواصليّة، هي عمليّة تتجاوز فعل تبادل الكلمات؛ إذ يتضمن فعل التّواصل توليد فهم مشترك بين المتحدّث والمستمع، والهدف هو أن يتمكّن المستمع من إدراك القصد الحقيقي وراء الرسالة، مما يجعله قادرا على التعرّف على النيّة المُضمرة وراء العبارات. هذه العمليّة تتطلّب توافقا عميقا بين الطرّفين، حيث يكون المستمع في النّهاية جزءًا أساسيا في تحقيق المعنى، ويعتمد نجاح التّواصل على قدرة المتحدّث على توجيه هذا الفهم المشترك بفاعليّة.

من هنا، وضمن هذه الارتباكات التي مسّت الفعل التّواصلي بين تفاصيل السيّولة التّكنولوجيّة، يتبدّى لنا أنّه" لم تعُد هناك ملحميّات كبرى، بل قصص فرديّة عن البدء والنّهايات

المتتاليّة. لكن الثّمن النّفسي فادح، فالفناء النّاجم عن هشاشة الرّوابط الإنسانيّة يختلف اختلافا كبيرا عن الفناء الصّادر عن الهشاشة الطّبيعيّة للأجساد البشريّة.. إنّه مُرّ ومتجدّد وليس مباغتا ونهائيّا." (باومان، 2017، ص. 14).

مجمل القول إذن، يظهر في توصيف الأحوال المُهتزّة التي يعيشها الفرد المعاصر نتيجة التحوّل من تجارب جماعيّة شاملة إلى تجارب فرديّة، حيث يغيب المعنى العميق والاتّصال المُستمر بين الأفراد، في غيّاب "الملحميات الكبرى"، يصبح الإنسان مُحاصرا في لحظات فرديّة من البداية والنّهاية، بلا روايات كبرى تربطه بالعالم أو بمجموعات اجتماعيّة واسعة؛ وهذه هي الهشاشة التي تحفّز على التّفكّك الاجتماعي، بسبب النّدوب النفسيّة التي تؤدّي يوما بعد الآخر إلى ضياع بوصلة الفعل التّواصلي الرّصين، ممّا يجعل الفناء النّفسي أمرا مكرّرا ومتجدّدا. بسبب تعزيز الشعور بالعزلة والقلق المستمر الذي يحرم الفرد من لذّة العيش الاجتماعي المشترك.

2-2- التّكنولوجيا بوصفها أداة للاحتِكاروالهيمنة الاقتصاديّة:

في هذا العصر المتسارع، علينا أن ندرك يقينا أنّ التّكنولوجيا لا تعتبر مجرّد وسيلة للتّقدم أو التّسلية وعرض التّفاهات التي تعمل على هزّ العلاقات الإنسانيّة وزرع الشّك فيها فقط، بل في حقيقة الأمر هيّ أداة قويّة للهيمنة الاقتصاديّة كذلك. حيث تتلاعب الشّركات الكبرى بالبرامج والبرمجيّات الرقميّة لتتمكّن من التّحكّم في توجّهات ورغبات المستهلكين، محوّلةً العالم إلى سوقٍ لا يتوقّف عن الاستهلاك. من خلال المعلومات والبيانات التي تُجمع عن كل فرد على شبكة الانترنت التي يتمّ تحليلها بدقّة، لتصميم منتجات وعروض تجعل من المستهلك آلة استهلاكية مستمرة. هذا التّكامل بين التكنولوجيا والاقتصاد هوّ ربط للعقول بحبل سرّي يقودهم نحو أهداف اقتصاديّة ضخمة، تكون غالبا غير مرئيّة لهم، وبالتالي نحن الآن جزء من شبكة استهلاكيّة هائلة، يتلاعب فيها توازن الإنسانيّة في كفّة المصالح المادية.

من خلال التّحليل السّابق، يتّضح أنّ الإنسان المعاصر يُلازمه الخوف والقلق والإدمان في آن، لأنّه لا يستطيع العيش بمعزل عن الأداة والتّقنيّة فهوّ في حركة تواصليّة بها ومعها في كلّ الأوقات والأماكن حتّى صارت تشعره بالعجز، لأنّها أي الآلة صارت تتحكّم فيه من الدّاخل والخارج، فكريّا وأخلاقيّا وثقافيّا ونفسيّا واجتماعيّا، حتّى صرنا نُشكّك أنّها البديل القادم للإنسان تمهيدا لما بعد الإنسانيّة.

يتأكّد هذا الأمر من خلال ما جاء به تحليل زيغمونت باومان لأوضاع العصر الحالي حيث يرى أنّ " مجتمعنا هوّ مجتمع المستهلكين، وفيه تُظهر الثّقافة نفسها، مثل كلّ شيء في العالم الذي يعيشه المستهلكون، باعتبارها مستودعا للبضائع الاستهلاكيّة، تتنافس جميعها لجذب الانتباه

الخاطف المستنزف لدى الزّبائن المحتملين، وتحاول جميعها جذب ذلك الانتباه لأكثر من مجرّد طرفة عين" (باومان، 2018، ص. 21).

يتضح من هذا التّحليل أنّ الثّقافة المعاصرة، كما يراها باومان، لا تقتصر على كونها مجالًا للتّفاعل الفكري أو الإبداعي، بل تحوّلت إلى منتج يتعرض للتّسويق في سوق الاستهلاك، وهذا ما يُؤثّر بشكل عميق في الفهم الجديد للعلاقات الإنسانيّة، التي أصبحت فيها الروابط الاجتماعيّة نفسها عرضة لهذه الديناميكيّات الاستهلاكيّة؛ في حين يُفترض أن تكون الثّقافة مكانا للتّبادل المعرفي أو الفكري أو العاطفي المستمر، لا أن تصبح مجرّد سلعة تُعرض في رفوف التّاريخ المؤقّت، يتناولها الأفراد بشكل عابر وسريع؛ وبالتالي، يساهم هذا النّموذج الاستهلاكي في تعزيز الهشاشة النفسيّة والفكريّة، حيث يُفقد الفرد القدرة على الاستغراق في المعنى أو البناء الصحي والصّحيح لعلاقاته وهويته.

هذا وقد أحدثت واستحدثت الثّورة التّكنولوجيّة المعاصرة إلى جانب الثورة الاقتصاديّة خططا استراتيجيّة تتركّز وتُركّز على تحويل الاهتمامات البشريّة إلى اهتمام سلعي ذو قيمة ماديّة فائقة، خاصّة عبر وسائط التّواصل الاجتماعي، كأن تعتمد على إثارة الانتباه من خلال تسخير قدرات الذّكاء العاطفي وسيّاسة الإلهاء والإغراء عن طريق جعل المستهلكين أكثر تفاعلاً، هذا النموذج الاقتصادي يخلق نوعا من الاقتصاد النفّسي الذي يتكامل مع الاقتصاد المادي، ويضطر الأفراد إلى الاستثمار في لحظات تافهة بدلاً من السّعي نحو تحقيق نموّهم الذاتي أو العاطفي؛ هذا الاستهلاك المفرط والتّرف الفائق، هو في مرحلة سريعة من التحوّل إلى سوق مُتقدم يُغذّي الشركات بالبيانات التي تُترجم لاحقاً إلى أرباح ضخمة.

ترتسم هذه الصّورة في استهداف بعض السّلوكات العاطفيّة التي تُجسّد المستهلكين في حالة إدمان مفتوحة، لهذا شخّص طه عبد الرّحمن شراهتهم الماديّة من خلال وصفه لهم أنّهم لا يتخلّصون من بضائع أو أمتعة لم تعُد تُثير شهواتهم أو تجلب أبصارهم، حتّى تستعدّ نفوسهم من جديد للتّخلّص ممّا استبدلوه مكانها، على وجود مزاياه الحاليّة، فأضحوا أشبه بالأطفال الذين لا تكاد أعينهم تقع على لعبة، حتّى يرموا باللّعبة التي في أيديهم، مصريّن على الحصول على اللّعبة الجديدة. (الرحمن، 2017، ص. 216).

وعلى هذا الأساس، لا يفوتنا أن ننوّه إلى الحصار الذي جسّده الإنسان لنفسه من خلال دخوله في دوامة الاستهلاك المفرط، حيث لا يتوقّف عن التطلّع إلى الأشياء الجديدة فقط من أجل التّسلية والمتعة، بل يراهن أيضا على تحويل هذا السّلوك إلى إدمان يجعله لا يتوقّف عن البحث عن "اللّعبة الجديدة". مثله مثل الأطفال الصّغار الذين يصيبهم الملل سريعا من الألعاب القديمة

ويرغبون في الحصول دائما على ما هو جديد، إنّها الشّهوة الدّائمة التي تدفع بالأفراد إلى استهلاك الأشياء دون التعمق في قيمتها أو معناها؛ وفراغ المعنى وخواء القيمة يؤدّي بالضّرورة إلى تحصيل فجوات عاطفيّة، إذ يتمّ التّعامل مع الأشياء كمصادر سريعة للإشباع دون الاكتراث بالعواقب النفسيّة لهذا الإدمان المادي الذي ينتهي إلى هدم الرّوابط الحقيقيّة أو إيجاد المعنى العميق في الحياة.

ليس هذا فقط، بل يلاحظ أيضا أنّ المستهلك المفرط صار يهتمّ بشكل واضح بالإسراع أكثر فأكثر، ولا يتحمّل ضيّاع الوقت، إرادة منه الوصول إلى المنتجات والصّوّر والتّواصل في أيّ ساعة. (ليبوفتسكي، 2022، ص. 121) كأنّها مرحلة جنون الاستهلاك في نظام جديد لا يحتفل إلّا بزفاف التّرف والفردانيّة اللّيبيراليّة. وجرّاء هذه التّحوّلات الكثيرة المرعبة يدعو ليبوفتسكي إلى ضرورة إعادة التّفكير في المعنى الاجتماعي والفردي للاستهلاكات الثّمينة، بالإضافة إلى الدّور المنظّم عادة للاستراتيجيّات المميّزة والصراعات الرّمزيّة بين الفئات الاجتماعيّة. بخاصّة وأنّها ثقافة ترف جديدة تكبر أمام أعيننا. (ليبوفتسكي ج.، 2018، ص. 20).

حالة التّرف المُتفاقمة هذه، حوّلت الجماهير إلى مصادر ربح دائمة لصالح الدّول المهيمنة والشركات الكبرى التي تسيطر على البنية التحتيّة الرقمية. فكلّ نقرة وكل تفاعل على منصّات التواصل الاجتماعي، وكل عملية شراء تُسهم بشكل غير مباشر في تعزيز المصالح الاقتصاديّة للجهات المهيمنة. في مقابل ذلك، ومن خلال التّعاطي غير المُقنّن للتّكنولوجيا والإدمان على الشّاشة، يُظهِر جليّا معاناة الإنسان من "القلق الرقمي"، حيث تحوّل التكنولوجيا هذا الكائن العاقل إلى كومة من الضّغوطات المتكرّرة سواء على المستوى الذّاتي أو الاجتماعي، حيث يصبح الواحد منّا غير قادر على التملّص من شبكة الاستهلاك المحكم الذي يفرضه عليه النّظام الرقمي. إذا كان الاستهلاك في العصور السابقة كان يتم وفقًا لحاجات محسوسة، فإن الاستهلاك الرقمي اليوم يعتمد على خلق حاجات جديدة مُصنّعة، مما يعمّق التوترات بين الرغبة والواقع.

من خلال ما تقدّم، يمكن تشخيص الوضع بحالة الخوف الذي نسمّي به حالة اللا يقين التي نعيشها، وهوّ الاسم الذي نسمّي به جهلنا، بالخطر، وبما يجب فعله لمنع الخطر، وبما يمكن فعله لمنعه وبما لا يمكن فعله أو بما يمكن فعله لصدّه إذا لم يكن لنا طاقة بمنعه. (باومان، الخوف السائل، 2017، صفحة 24) وهذا ما يترك المجتمعات المعاصرة تتخبّط في حالة من الهلع والارتباك، والخوف الذي يصبح فيها عادة وليس شعورا مناسباتيّا رغم توفّرها على كلّ المغريات والماديّات.

وهذا ما يقود إلى خلاصة معناها، أنّ غرض فعل التّواصل في عصر الاستهلاك الجامح صار مُوجّها نحو إشباع رغبة الذّات بالاستهلاك حتّى لو كان ذلك دون هدف أو غاية اجتماعيّة مُعيّنة، وهذا الذي أثّر بشكل ظاهر على سلوكيّات الإنسان المعاصر، فصار كائنا مُتلهّفا للجديد بسرعة فائقة، باحثا عن الكميّة لا الجودة، ومُتيّما بالصّورة وتوثيق اللّحظة الفوريّة ونفوره من كلّ أمر يُسبّب له التّعب والتّفكير والحيرة، ومن هنا، يمكن وصف هذا الوضع بالخروج عن السّيطرة، جرّاء طغيان المادّة عن المعنى، في هذا الموقف، الحكم المنطقي يبيّن مقاصد التّواصل المعاصر الذي يعتبر من تطلّعات المجتمعات الاستهلاكيّة، إلّا أنّه ليس التّواصل الذي يُعزّز أواصر وروابط الإنسانيّة ويُحقّق اللّحمة الاجتماعيّة الكونيّة، بقدر ما هوّ تواصل إعلامي مبنيّ على تبادل المصالح والمِنح والانتصارات الاقتصاديّة.

3- التقنوعلمي ومعايير الطبيعة الإنسانية:

بعد أن أصبحت التكنولوجيا المحرّك الأساسي والرّئيس للاقتصاد العالمي في عصرنا الرّاهن، فالتقدّم التكنولوجي، سواء في عالم الانترنت أو في مجال ابتكارات الأجهزة الذكيّة، لا يمكن تغطيّته أو إنكاره، بخاصّة وأنّه ساهم في خلق أسواق جديدة وأدى إلى تحوّل جذري في نمط الإنتاج والاستهلاك. الأمر لم يتوقّف هنا فحسب، فقد ظهرت تحديّات اقتصاديّة جديدة بالتّحالف مع آخر تطوّرات التّكنولوجيا، التي نوّعت في السّوق: التّجارة الإلكترونيّة، البيانات، والخدمات الرقميّة، وهذا ما عزّز من هيمنة المصالح الماديّة على حساب القيّم الإنسانيّة. ممّا أدّى إلى تعدّي حدود الكرامة الإنسانيّة إلى مستويات أكثر تطورًا تعكس ابتكارات علميّة تتلاقى مع التقدّم التّقني بشكل عميق، خصوصًا في مجال التقنو علمي والذّكاء الاصطناعي.

هذا المزيج من العلم والتكنولوجيا والسّعي وراء تحقيق الأرباح على حساب قيمة الإنسان المعنويّة ووجوده الأصلي، صار الرّهان على الرّوح والجسد في آن، نتاج ما فعله هوس الإنسان بالآلة ليلحق الضّرر بأخيه الإنسان في أوّل فرصة، فبعد الثورة العلميّة في مجال البيولوجيا، التي عرفت تقدّما غير مسبوق النّظير، نظرا للإنجازات التي عرفها العلم، خاصة علم البيولوجيا والطب الذي سار في طريق لا محدود.

وفي المضي قدما بلا هوادة في تحقيق نتائج النظريّات التي تساهم في تحسين الحالة الطبيعيّة للإنسان، أين حدّدها فرنسيس بيكون من قبل في مفهوم السّيطرة على الطبيعة، عبر منجزات العلم التي تخول السّلطة المطلقة للإنسان في التّحكّم في الطّبيعة عبر التّجريب والاختراع المستمر، أصبحت الطّبيعة البشريّة غريبة عن طبيعتها الأولى، لأنّ التقنيّة تسللت حول مضامينها

العامّة، سواء في الأمومة أو الأخوة، أو الجمال أو الهويّة، في ظلّ منجزات البيوتكنولوجيا الحيويّة، تغيرّت معايير العلاقات الإنسانيّة، وتغيرّت طبيعة الإنسان ومميزّاته، من قداسة وكرامة وغيرهما.

نتطرّق في هذا السّياق إلى ما جاء به الفيلسوف إريك فروم عن أضرار تعاطي التّقنيّة فراح واصِفا الإنسان بداية من الحديث وتلميحا عن المعاصر بأنّه ومع ذلك يشعر بأنّه قلِق وتحيّره يزداد ويعمل ويُكافح إلّا أنّه يُدرك مغموما معنى العبث فيما يتعلّق بنشاطاته وبينما تزداد سيطرته على الطّبيعة يشعر بالعجز في حياته الفرديّة وفي المجتمع، وعلى حين يخلق أدوات جديدة وأفضل للهيمنة على الطّبيعة، فقد غدا ناشِبا في شبكة تلك الوسائل وفقد رؤية الغاية التي وحدها تُضفي عليها المعنى وبينما أصبح الإنسان مُتحكّما إلى حدّ ما في الطّبيعة، غدا ابن الآلة التي بنتها يداه وهوّ بكلّ معرفته عن المادّة جاهل فيما يتّصل بأهمّ مسائل الوجود الإنساني وأكثرها أساسيّة، من هوّ الإنسان وكيف ينبغي أن يعيش وكيف يمكن إطلاق الطّاقات الهائلة فيه واستخدامها بصورة مُنتِجة (فروم، د-ت، ص. 38).

3-1-الهوية الإنسانية وعلاقاتها:

لقد غيّرت الثورة البيولوجية من الطبيعة الهوياتية للإنسان، كيف ذلك؟ وما هو هذا التغيير؟ تساؤلات عديدة تثار في حقل الهويّة، الذي شهد انفجارا خطابيّا مع التطور البيو تكنولوجي، الذي منح القيّادة للإنسان، من خلال تطبيقات الهندسة الوراثيّة على المادة الحيّة، التي أخذت تُغيّر من شكل الإنسان، وبالتالي بدأ يفقد المعايير الأولى التي تميّزت بها هويّته، وهذا ما خلق مشكلات أخلاقيّة زعزعت التصوّر التّقليدي للهويّة القائم على وجود أساسيّات و كماليّات لا يتحقّق وجود الهويّة إلا من دونها، لعل أهمّها عدم التصرّف في مميّزات كل فرد منحه إيّاها الله، لأنّ كلّ ذرّة فيه تُعبّر عن هويّته و تميّزه عن غيره، حتى قبل أن يرى النّور في الوجود فلا بد من تركه يأتي كما أذن له من قبل القوى المطلقة و إن تدخّل فيه الإنسان فقد قضى على حريّته و بالتالي طمس إحدى أهم معالم الهويّة، اللهم إن كان ذلك التدخل مقتصرا على علاج مرض و ليس بنيّة تغيير الخليقة، ثم إنّ ذلك التدخّل بإمكانه الانقلاب على الطبيعة الإنسانيّة و يعجز الإنسان عن التحكّم في الصنائع الموجودة على مستوى المخبر و ينقلب السحر على ذلك الإنسان الصانع.

لكن الإنسان الغربي لم يُطِل النّظر لهذه المشكلات الإيتيقية و لم تعد تهمّه المخاوف بقدر ما تهمّه التّطورات التي أبهرته ومازال يطمع في المزيد و بالتّالي التّحسين من السلالة الإنسانيّة سواء على مستوى الجانب الفيزيقي الطبيعي أو العقلي فيما يخص القدرات العقليّة والذكاء وبالتالي تغيير هويّة الإنسان إلى هويّة جديدة تحمل أقطابها صفات خارقة يحملها كائن جديد ذو قدرات خارقة أيضا، محطما في ذلك كلّ التقاليد الباليّة، بحُكم أنّ لديه ما يؤهله من قدرات ليصبح

إنسانا جديدا يتمتع بالجمال و الذكاء و القوة ليصبح الجميع متساوين في القدرات أين مميزات كل إنسان التي منحته درجة خطيرة قد يفقد فيها الإنسان هويته.

إنّ التطوّر الهائل الذي أحرزته العلوم البيولوجيّة في السنوات الأخيرة بالاستناد إلى تقاناتها المتطورة، قد أحدث شرخا قيميّا أصاب الإنسان ذلك الكائن الذي يتمتع بجملة من القيّم والتي تحدد معالم هويته وإنسانيته بالضرورة، لكن ذلك التقدم المتسارع وضع الإنسان في مساحة محظورة من أجل إجراء التجارب عليه، وبالتالي هدم تلك القيم التي تراكمت عبر آلاف السنين وحطم كل الجهود التي بُذلت في سبيل تثقيف الرّوح والنظرة إلى العالم وغدت مجرد أوهام، وأفلت الحقيقة وأصبحت إرادة قوة مرتسمة على وجه الإنسان التكنولوجي. (شايغان، 1993، ص. 9).

وعلى هذا، فقد فقدت المُطلقية مصداقيّتها وأصبحت الحقيقة الكامنة عند الإنسان العاقل المفكّر مجرّد وهم، لأنه في عصر البيوتكنولوجيا أصبح الإنسان الصانع والمالِك للحقيقة لأنه مُتفوّق تقنيّا ولم تعد تلك القيّم التي سعى لاكتسابها منذ وطأته على الأرض قيّما صالحة للاستهلاك، بل أصبحت قيم الذكاء المحتسبة تكنولوجيا والجمال التي تضفيها عمليات التجميل على الوجه، وكذلك القوة المبتكرة للجسد وللذكاء هي القيم المسيطرة على هذا العصر، فقد اختزل الانسان فقط في شقه المادي وصار تحت وطأة تحدي ينذر بفنائه.

ضف إلى هذا، تحول جسد الكائن الحي وأعضاؤه موضوعا لها ومنها جسم الانسان الذي ظل عبر قرون متتالية محور الممارسات الطبيّة والبيولوجية، بيد أنه لم يكن كما هو عليه الآن مجزئا، مشيئا ومشتتا وأصبح موضوع تحويل وتركيب على طاولة الجراحين، فأصبح جسم الإنسان مرادف لقطع الغيار القابلة للصيانة والاستبدال، خاضعا للتجارب التي جعلت منه موضوعا مفرغا من كل المضامين القيميّة والشحنات الوجودية. (المؤلفين، 2016، ص. 82).

إذن، تمّ اختزال جسد الإنسان كمادة قابلة للتّفكيك والتخزين في مخابر البيولوجيا وبنوك المعطيات البيولوجية كجزيئات مفرّقة ومتناثرة، حيث ألغيت عنه كل رؤية كليّة شموليّة. (المؤلفين، 2016، ص.82) ومن ثمّ تم تحويل جسد الإنسان إلى قطع غيار قابلة للتفكيك تحت تصرف البيولوجي في مخبره.

وبالتالي تم نزع ثوب الرؤية الكليّة عن الإنسان الذي كان يتمتع بها وأضحى مفرغا من كل قيمة لعل أهمها القداسة فقد كان هذا الكائن مقدسا في أعرق الديانات سواء السماوية أو الوضعية، وكان مقدسا أيضا في الأساطير وفي كل المواضع إلى أن نزعت عنه الثورة البيوتكنولوجية ثوب القداسة من أجل ما يعرف بعملية التسليع، كما فقد أيضا كرامته التي هي جزء من القداسة ومرتبطة بها، فالكرامة الإنسانية ثابتة ولا تقبل أي غرض يغيرها أو يقلل من شأنها، وبما أن الأمر

أصاب القداسة والكرامة فقد امتد بصورة آلية إلى الهويّة، التي فقدت أهم معالمها أثناء التجريب عليه، بخاصة أثناء عمليّة زرع الأعضاء بحيث يكون العضو المزروع في الجسم دخيلا عن الأعضاء ويغيّر من معالم هويّة الشخص أو حتى يشعر الذات بغربتها واختلافها عن ذلك الزائر بالرغم من احتياج الجسم لذلك العضو ليستمر في الحياة.

ومن جهة أخرى أيضا، تفتح مشكلة الهويّة نافذة أخرى من نوافذ أبواب الانتهاك التقنوعلمي لمحرابها ، بحيث تتّخذ تجارب بعض العلماء المسيسة من الأجنة كمادة مخبرية لإنجاز تجاربهم أو استخدام خلاياهم الجذعية من أجل علاج الأمراض، كل هذا تحت ذريعة أنّ الجنين بلا هوية وليس بعد شخصا وبالتالي يقومون بتجارب تحقق لهم الربح المادي فيما بعد ويستمر السياسيون في استثمار تلك التجارب في السوق كونها محل جذب العديد من الأطراف لما فيها من حلول لما بات يعرف بالمستحيل لدى بعض الأشخاص، فصار المستحيل ممكنا اعتمادا على الجنين الذي لم يعترف بهويته من طرف أصحاب المصالح.

وحجتهم في ذلك أنه لا يتوفر على صفة الوعي، تلك الصفة اللازمة للرقي إلى مرتبة الإنساني بحيث أن " من أهم شروط الوعي بالذات قدرة الكائن على اتخاذ القرارات، وهذا مالا ينطبق في الجنين البشري في أي مرحلة من مراحل نموه، ولكن هذا أيضا لا ينطبق على الطفل بعد ولادته بأشهر عديدة، وهو أيضا لا ينطبق على أعداد كبيرة من البشر كالمتخلفين عقليا أو الذين يعتبرون ميتين من الناحية الاكلينيكية" (البقصمي، 1993، صفحة 115)لأن كل هؤلاء حسب أنصار هذا التوجه لا يمكن نعتهم بالشخص، فهم لا يستطيعون القيام بالأعمال ولا التعبير عن رأيهم بكل وعي.

2-3- رابطة اختزال القداسة الإنسانية:

من أكثر الصفات التي تميز الانسان، باعتباره خليفة الله في الأرض، هي صفة القداسة البشريّة، فالإنسان هالة جد مقدسة، وأي تدخل عليه يفقده تلك الحكمة الإلهيّة، ومن المعلوم أن مبدأ قدسيّة الحياة له أصوله، سواء في الحضارات الشرقيّة خاصة الحضارة الهندوسية أو في التقاليد المسيحية واليهودية إضافة إلى ذلك أنّ القانون الغربي قد تم تشكيله إلى حد كبير من قبل الديانة اليهودية والمسيحية خاصة في مبدأ قدسية الحياة، فالإنسان يستمد ألوهيته وقيمته وقدسيته من الله وليس من صفة إنسانيّة، (keyserlingk, 1979, p. 11.12).

بمعنى أن صفة القدسيّة تحمل دلالة دينيّة مطلقة، كونها صفة مستمدة من الذات العليا أي الذّات الإلهية وليس الإنسانيّة، فهي ليست صفة وضعيّة في الإنسان بل تتعالى عن ذلك لتشكل ذلك الرابط المتين بين الإنسان وخالقه والذي لا يجوز المساس به. فقد خلق الإنسان وفقا

للمشيئة الإلهية، ووفقا لمبدأ الاختلاف بحيث يختلف البشر في الشكل لكنهم متشابهون كونهم كائنات مقدسة، فالحياة إذن "مهمة وثمينة، وهي خاصية أساسية في الإنسان ولا بد من احترامها، ولا ينبغي أن تهدر بدون تبرير قوي، لأن الناس كلهم لهم حق متساو في الحياة" (البقصمي، 1993، ص ص. 106,108).

فمبدأ القدسية ينص على عدم قتل النفس أو تغيير طبيعتها، أو التقليل من شأنها أو قيمتها بأي شكل من الأشكال، لذلك فحياة الإنسان عبارة عن خط أحمر، ويقصد بفعل القداسة أن جسد الإنسان يتمتع بحرمة المساس به أو وضعه تحت التصرف العلمي التقني أو وضعه تحت مجهر البحوث البيولوجية ومخابرها التي تتقن النبش في أسرار جسده وتركيبته الداخلية المسؤولة عن تكونه، فالبحوث البيولوجية اليوم خاصة تلك المقترنة بالهندسة الوراثية ومنجزاتها ومشروع الجينوم البشري الذي يهدف للكشف عن أسرار الحياة، قد لكمت القداسة الإنسانية بلكمة قوية أفقدتها كل معنى، خاصة إذا ما ارتبطت بالسلطة السياسية التي تحرك تلك البحوث بما يخدم مصالحها، فهي تتصرف وفقا لمنطق المنفعة والتقدم ولا تهمها فكرة القداسة الإنسانية البتة.

لذلك فإن تصرف السياسيين في المخابر البيولوجية من أجل التخطيط للإنسانية قد أفقد هذه القداسة التي منحت للإنسان وفق عامل فطري مرتبط بالدين والحياة أيضا ومرتبط بالارتباطات الأخلاقية من جهة أخرى لأن فقدان هذه الصفة يؤدي بالضرورة إلى أفول الإنسانية بالدرجة الأولى، "لقد أصبح بإمكان العلماء التدخل في تركيب الإنسان الوراثي. وهم يحلمون بأن يتحكموا بهذا التركيب ويتلاعبوا به إلى حد إنتاج نسخ عديدة من إنسان واحد، فأين تقف قدسية الحياة من كل هذا؟

فالإجابة عن هذا السؤال هي إجابة واضحة لأن موضع القدسية هنا في الأفول من خلال التدخل السياسي على الإنسان والتي تتباين مظاهره من خلال التحسين والتعديل، وبالتالي تغيير الطبيعة الإنسانية فتهدر القدسية مرورا بالاستنساخ البشري الذي يقضي على الاختلاف الإنساني ويشكل صورة متكاملة لفناء الإنسان، ثم خلق أجنة وإجراء تجارب صارمة عليها ومن ثم رميها كأنها لم تكن كائن بشري في بداية نموه، وفعل الإجهاض الذي يسمح للمرأة بحرية تقرير مصيرها في جسدها والتخلص من الجنين في بداية اكتشاف الحمل أو قتل كل جنين مشوه، ألا يعتبر هذا قتل نفس بدون مبرر وجريمة يحاكم عليها فعل القداسة؟

وصولا إلى مشروع الجينوم البشري الذي يقضي مباشرة على عبارة الحياة مقدسة كاشفا عن كل سر طبيعي في الإنسان من خلال تفكيك الخريطة الوراثية وبالتالي إمكانية حل ألغاز

الأمراض الوراثية والمستعصية وتنقص نسبة الإصابة مستقبلا من خلال معرفة كيفية الوقاية منها، والكثير من التطبيقات البيوتكنولوجية التي دنست المقدس خاصة إذا عمل السياسيون على تحقيق أهداف مرتبطة بالسياسة الاجتماعية تلك التي تهدف إلى خلق أفراد تنافس بهم على المستوى الاجتماعي، هكذا إذن فقد أهدرت صفة القداسة الإنسانية وتحولت الحياة من شيء لا يمكن المساس به أو التصرف فيه إلى مجرد سلع معروضة في الأسواق تحقق الربح المادي والمالي وتنعش الاقتصاد السياسي عامة، وبالتالي تُطعن أقوى رابطة إنسانية في هذا المجال.

3-3-الحرية في مهب التطاول التقني:

تتّصل صفة الحرية بالفردانيّة اتّصالا وثيقا، أين تم الإعلان عليها مع الحداثة التي مجدت الذات تحت ختم المقولة الديكارتية أنا أفكر إذن أنا موجود، وبالرغم من أن الحرية خُلقت مع الانسان، لكنها صارت مبدأ هام في حياته، باعتباره قائدا لنفسه، مع الحداثة، التي أعلت من شأن الإنسان، وبالتالي فهو حر وجميع الأفراد أحرار، لكن الحداثة أوقعته في مأزق، بفعل التطورات العلمية، صارت الحرية مكبلة، حتى دون أن يدري الفرد، لأنه هناك العديد من الجهات والدول، تتجه نحو صقل أفرادها وتدجينهم تحت مسمى أطروحة الإنسان الجديد التي تغنى بها نيتشه كثيرا، الإنسان السوبر، المتمتع بذكاء خارق، وقدرات جسدية تقضي على المفهوم التقليدي للتعب والمرض، ثم إن النتائج العلمية للهندسة الوراثية تعني التحكم ثم التخطيط لمشروع إنساني تتصرف فيه الإرادة الإنسانية من أجل فتح آفاق تكميل الوجود الإنساني وتجاوز النقائص التي آلمت الإنسانية منذ زمن بعيد. (بوحناش، 2017، ص. 180).

وعلى هذا الأساس، تغيب كل صفات الأفراد الطبيعية بما فيها الحرية، فلا يختار الإنسان مصيره بنفسه، ثم إن النتائج العلمية التي توصلت إليها ميادين الهندسة الوراثية تعد بتحسين النوع الإنساني وتغييره، ليس هذا فقط، إنّما ارتبطت نتائج البيولوجيا الحديثة بخطة تسيير الإنسان لذاته كما أحدثت ثورة عميقة في تصور هذا الكائن لوجوده المتعدد الأبعاد والذي سيغدو مجموعة من العناصر الدقيقة المتفاعلة وتركيبها وتفكيكها هو ما يصور الماهية الإنسانية الجديدة. (بوحناش، 2017، ص.214).

جليّ إذن، أنّ الإنسان الجديد سيغدو إنسانا ذو ماهية جديدة متغيرة، ماهية تحدّدها قطع الغيار الجديدة التي ستدخل في تركيبة الجسد الإنساني المختلف كثيرا عن هويّة الأجساد الحاليّة عن طريق البيوتكنولوجيا الطبية التي تتحكم في معايير الطبيعة تعديلا وتحسينا ثم تفوّقا لإنتاج بشر جديد يتجاوز الصّلة بالعضوي لينتقل إلى مصفّ الآلهة. (بوحناش، 2017، ص.215).

لهذا، انفتح ملف السوبر مان من جديد لينتج إنسانيّة متفوقة، داخل مخابر البحث، التي تفقد الإنسان حريتّه، وحتى كرامته لأن الكرامة البشرية تحيلنا "إلى فكرة أن كلّ شيء يرجع الى الكائن البشري لأنه إنساني، وهو احترام لا مشروط يعود إلى كل فرد، مهما كان سنّه وجسمه وصحته، ووضعه الاجتماعي وديانته، وهي كرامة ملازمة، وليست كرامة إيتيقية، لأن الأولى ذات مفهوم ستاتيكي والثانية ذات مفهوم إيتيقي، كأن نقول أنّ رجلا نزيها أكثر كرامة من لص". (جديدي، 2021، ص. 259).

والجدير بالملاحظة، أنّ مفهوم الكرامة هو مفهوم واسع يرتبط بمفهوم الإنسانيّة عامة دون استثناء، لا لشيء إلا لكون الفرد كائن إنساني، صفة الكرامة ملازمة له، ولها مفهوم آخر مرتبط بالأخلاق والإيتيقا، إذ تتعزز الكرامة هنا مع القيّم التي تميّز شخص ما عن آخر، لكن في ميدان البحث التكنولوجي الصّارم على الإنسان، أين صارت الكرامة عرضة للتهديد، من قبل مقتضيات التجريب والاستعمال المكثف للتقنيات البيولوجية على الإنسان، تصبح ذات هذا الأخير عبارة عن حقل تجريبي فاقد لكل استقلالية وكرامة، أي تلك المسؤولة عن حفظ وصون الشخص الإنساني بمفهومها العام كونه إنسان قبل أي شيء (إيمان، 2024، ص. 64).

فبطبيعة الحال، إذا انهارت الكرامة الإنسانيّة، فإنّ الإنسان سيفقد روابطه الذاتيّة _التي تجعل منه إنسانا واعيّا ومسؤولا بل وتحدّد هويّته ككلّ _ في مهب الثورة البيولوجية، وبالتالي صار من الضروري الاهتمام بهذه القيّم الفردية ومآلتها على الآخر، لأنها ستؤثر على الفرد وعلى محيطه الاجتماعي والثقافي، لتشكل بما يسمى الاغتراب الذاتي والاجتماعي.

بخاصّة وأنّه من الصّعب جدّا التّحكّم في مكابح الاغتراب الذّاتي والاجتماعي الذي يعيشه إنسان هذا العصر خصوصا وأنّ "عالمنا اليوم يشهد عنفا سائلا وهيمنة صلبة، وهو يتعرّض لتهاوي الأنظمة وتفكّك الرّوابط، وسعينا نحو فهم ما نحن فيه هوّ سبيلنا لتجاوزه وبناء مجتمعات أكثر كرامة" (باومان، 2016، ص.18).

ما يمكن قوله في واقع الأمر أنّه علينا أن ندرك قطعا أنّ"علم التّقنيّة صار يُشبه آلة شيطانيّة، تُنتِج الدّمار أكثر ممّا تُنتِج المنافع" (ليبوفتسكي، 2022، ص.357) لهذا، وجب التّحرّك السّريع لرسم خطط بناء هذا الوعي قبل أن تسكننا الآلة وتتمكّن منا بالكامل حيث أنّ "الروبوهات قد أصبحت بالغة الفعاليّة: بإمكانها الآن فهمنا والتّحدّث إلينا، ولكنّها ستكون غدا قادرة على التّفكير، بل قادرة على إدراك انفعالاتنا. وهكذا سيعمل تطوّر الذّكاء الاصطناعي على إغناء ميدان التّوقّع والمساعدة على اتّخاذ القرار بدرجات قد لا نستطيع الآن تحديدها" (غودار، 2019، ص. 33).

- خاتمة:

من خلال الدراسة والتحليل المعمق للتأثيرات التي أحدثتها السّيولة التكنولوجيّة على الهويّة الإنسانيّة، تمّ التوصّل إلى النّتائج الآتيّة:

- إنّ الاستخدام الواسع والمفرط للتكنولوجيا ووسائل التواصل الاجتماعي أدّى إلى انحسار الهويّة الإنسانيّة وتشتّت الرّوابط الاجتماعيّة التي تمّ اختزالها في العوالم الافتراضيّة البعيدة عن العمق العاطفي والتّفاعل الحقيقي والمليئة عن آخرها بالسّطحيّة والتّفاهة. بدلاً من أن تكون هذه التقنيات وسيلة لتقوية الروابط الإنسانية، فقد زادت في خلق الفجوة بين الأفراد ورفعت من شأن العزلة النفسية بينهم.

- لم تؤثّر التّكنولوجيا على طبيعة العلاقات الإنسانيّة والهوياتيّة فحسب، بل ساعدت الدول المهيمنة على فرض سيطرتها وثقافتها ومصالحها من خلال البوابة الاقتصادية وترسيخ فعل الاستهلاك الجامح.

- إنّ الآلة التي صنعها الإنسان لتحسين حياته وتسهيل مهامه، أصبحت الآن تتفوق عليه في العديد من المجالات. ورغم أنها تهدف إلى تسهيل الحياة وضمان الراحة، فإنها تثير تساؤلات حول مدى سيطرتها على الإنسان، حيث أصبحت تؤثر على قراراته، سلوكه، وحتى وظائفه، مما يعكس تناقضًا بين التحرر والتبعية في العلاقة بين الإنسان وصناعة يده وهذا ما يجسّد مفارقة (خطوة إلى الأمام خطوة إلى الخلف).

وعلى هذا الأساس يمكننا تقديم التّوصيّات والمقترحات التّاليّة:

- العمل على خلق التوازن بين العقل البشري والآلة في عصر السيولة التكنولوجية، حيث ينبغي أن يسعى الإنسان إلى موازنة التقدم التكنولوجي مع حفاظه على كرامته وجوهره الإنساني. فالتطور التكنولوجي يجب أن يكون أداة لتحرير الفكر والإبداع، لا وسيلة لتقليص القدرة على التأمل العميق وفهم الذات.

- إعادة النظر في مفهوم الحريّة في ظلّ هذا التّطوّر الرّقمي الذي لم يزد الإنسان إلا فردانيّة ونرجسيّة جرّاء السّعي وراء توهّم الشعور بالتحرر، لكنه في واقع الأمر قد يحبس الإنسان في شبكة من الاستجابات المبرمجة. لذا، يجب على الإنسان أن يسعى لإعادة تعريف الحرية بعيداً عن تقنيات التحفيز اللحظي، ليعود إلى الحرية الحقيقية القائمة على الوعي والاختيارات الرّازنة والوازنة.

- الحذر من التقدم على حساب انمحاء ملامح الهويّة الإنسانيّة، بينما تسارع التكنولوجيا في تشكيل المستقبل، ينبغي للإنسان أن يتأنى في التعامل مع كل تطور جديد، فليس كل تقدم تقني

يعني تطورا ودعما حقيقياً للإنسانية. إنّ ما هو مطلوب ليس التوسع السريع في العالم الافتراضي، بل التعمق في فهم الذات والمجتمع.

- تسليط الضّوء على الأبحاث العلميّة المتعلّقة بمجالات العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة ودعم الدراسات البحثيّة التي تقف على تحليل آثار التطور التكنولوجي على العلاقات الإنسانيّة، مع التركيز على تحديد السّبل التي يمكن من خلالها الحفاظ على عمق العلاقات في مواجهة التكنولوجيا.

- ضرورة تفعيل وتعزيز مهارات التّفكير الفلسفي ونخصّ بالذّكر هنا، مهارتي التّحليل والنّقد كي نتمكّن في فهم مجريات هذا العصر المزدحم بالبيانات والمعلومات، حيث تزداد الحاجة إلى تعزيز التفكير النقدي الذي يحقّق للإنسان القدرة على التفريق بين ما يتيح له التقدم وبين ما قد يقوده إلى التفريط في إنسانيته. الفلسفة والتأمل هما سلاحا الإنسان للبقاء حرا في وجه سيولة المعلومات والتقنيات.

قائمة المراجع:

- البقصمي ناهدة, .(1993)، الهندسة الوراثية والأخلاق،د،ط،الكويت: سلسلة عالم المعرفة.
- إلزا غودار. (2019). أنا أوسيلفي إذن أنا موجود، تحوّلات الأنا في العصر الافتراضي. (سعيد بنكراد)، ط1،الدار البيضاء المغرب: المركز الثّقافي للكتاب.
- أوزياس جون ماري. (1983). الفلسفة والتّقنيّات،ترجمة: عادل العوا، ط2، بيروت باريس: منشورات عويدات.
- باومان زيغمونت ، (2018)، الثّقافة السّائلة، ترجمة: حجاج أبو جبر، ط1، بيروت لبنان: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.
- باومان زيغمونت. (2016)، الحداثة السائلة، ترجمة: حجاج أبو جبر،ط1، بيروت, لبنان: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.
- باومان زيغمونت. (2017)، الخوف السائل ، ترجمة: حجاج أبو جبر، ط1،بيروت, لبنان: الشبكة العربية للنشر والأبحاث.
- بلعقروز عبد الرزاق .(2019)، تحوّلات الفكر الفلسفي المعاصر، أسئلة المفهوم والمعنى والتّواصل، ط2، بيروت, لبنان: منتدى المعارف.
- بوحناش نورة، (2017)،البيواتيقا والفلسفة من الإنسان الفائق إلى الإنسان المتزكي ،د،ط، بيروت, لبنان: المؤسسة العربية للفكر والإبداع.
- جديدي محمد، (2021)، الأفق البيواتيقي ج2 ،ط1،الجزائر: دار ميم للنشر.
- سيرل جون ، (2006)، العقل واللغة والمجتمع، الفلسفة في العالم الواقعي، ترجمة: سعيد الغانمي , ط1، الجزائر العاصمة, الجزائر: منشورات الاختلاف.
- شايغان داريوش, .(1993) .أوهام الهوية، ترجمة: محمد علي مقلد، ط1، بيروت, لبنان: دار الساقي.
- عامر إيمان,(2024) .التحكم السياسي في البحوث البيولوجية ميشيل فوكو نموذجا، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه .جامعة قالمة.
- عبد الرحمن طه. (2017)، دين الحياء من الفقه الائتماري إلى الفقه الائتماني، التحديّات الأخلاقيّة لثورة الإعلام والاتّصال ، ط1، بيروت, لبنان: المؤسسة العربية للفكر والإبداع.
- فروم إريك. الإنسان من أجل ذاته، بحث في سيكولوجيّة الأخلاق،ترجمة: محمود منقذ الهاشمي، د،ط، د، ب.

- ليبوفتسكي جيل, .(2018) .أفول الواجب، الأخلاق غير المؤلمة للأزمنة الدّيمقراطيّة الجديدة ،البشير عصام المراكشي، ط1، بيروت, لبنان: مركز نماء للبحوث والدراسات.
- ليبوفتسكي جيل, .(2018) .التّرف الخالد، من عصر المقدس إلى زمن الماركات، ترجمة: الشيماء المجدي، ط1، بيروت, لبنان: مركز نماء للبحوث والدراسات.
- ليبوفتسكي جيل. (2022). السعادة المُتناقضة، مقالة عن مجتمع الاستهلاك المُفرط. ترجمة: الشيماء المجدي،ط1،القاهرة، بيروت: مركز نماء للبحوث والدّراسات.
- مجموعة من المؤلفين, الأخلاقيات التطبيقية والرهانات المعاصرة للفكر الفلسفي ،ط1،الجزائر: إصدارات الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية.
- ميشال مافيزولي ، وروني شيلر. (2014). مزايا العقل الحسّاس، دفاعا عن سوسيولوجيا تفاعليّة. ترجمة: عبد الله زارو، د،ط، الدار البيضاء، المغرب: أفريقيا الشرق.
- Edward w. keyserlingk, Le caractère sacré de la vie ou la qualité de la vie, (1979), document d'étude, commission de réforme du droit du canada, Montreal.